بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

أعود الآن مجدداً الى مايدعى بالحملة الصليبية الثالثة لأقدم آخر النصوص الهامة حولها،وبهذا النص أختم المجلدات الأربعة التي استدركتها على الحلقة الأولى من موسوعتنا،وسأنتقل بعونه تعالى نحو الحملة الخامسة وماتلاها،وذلك مع نصوص الرحلات ونصين آخرين هامين جداً.

وسلفت الاشارة الى أهمية الحملة الثالثة،ومن هنا تأتي أهمية مصادر أخبارها، ومصدرنا اليوم وثائقي عاصر الحملة،أو نهل عمن عاصرها،وساق أخبارها شعراً،حوى صوراً رائعة،فللشعر دوما أداؤه المتميز.

وفي مدخل هذا المجلد دراسة مركزة حول هذا الشعر ومصادره وأهميته ومقارنته بمواد المجلد المتقدم،وأضفت مواد هذا الشعر،مثل مواد المجلد المتقدم القداسة على أعمال رتشارد الثاني ملك انكلترا،لكن على الرغم من كل ذلك،لقد كان هذا الملك طائشاً دموياً متهوراً،حمل عقلية القرصان،ونفسية متعطشة للثروة والذهب بأي ثمن كان،فهو قد باع كل شيء في مملكته،ولو وجد من يشتري لندن منه لباعه إياها،وعندما حط رحاله في صقلية نهب أهلها،وابتز ملكها، ثم قصد قبرص فاجتاحها وسلبها واستولى عليها،ولم يغير سلوكه هذا في فلسطين فهو على هذا لم يقد حملة مقدسة،بل خاض حرباً استعمارية بشعة،وبذلك خط الطريق للحملة الرابعة التي اجتاحت القسطنطينية وأراضي الامبراطورية البيزنطية.

وأعود لأذكر بالدروس التاريخية المستفادة من هذه الحملة، وعلى رأسها أنه بفضل الوحدة فيما بين مصر الشام استطاع صلاح الدين الصمود،واحباط أهداف الحملة،فمن ذلك الحين شكلت دولة الشام ومصر المكافىء للغرب الصليبي،والمسؤول عن الثقافة العربية والحضارة الاسلامية حتى تاريخ استيلاء العثمانيين على هذه البلاد،ولذلك على العرب في الشام ومصر التوحد مجدداً حتى تجتمع الأمة من جديد،ولكي تجري أعمال استئناف تحرير فلسطين،كل فلسطين.

ومن الدروس التاريخية لهذه الحملة ماتعلق بدور الامبراطورية البيزنطية،فقبلها قدمت بيزنطة التسهيلات الكبيرة للفرنجة الزاحفين براً،وتدخلت مراراً لحماية دويلات الفرنجة في الشام،لكن نجاح نقل القوات الانكليزية والفرنسية بحراً آذن بالاستغناء عن الأراضي البيزنطية،وبالتالي عن الدور البيزنطي كله، ونظراً لشهرة بيزنطة بالثراء،ولتعطش ملوك الفرنجة للذهب والثروة،كانت القسطنطينية أول ضحاياهم،وبذلك عجلوا في دمار الامبراطورية وسيرها نحو الزوال من الوجود.

وهذه الدروس مفيدة جداً في أيامنا هذه،فبالوحدة يمكن للعرب السير نحو العتق من الصلف والرعونة الأمريكية-الصهيونية،ولعل بين قادة تركيا من يتعظ بدروس التاريخ فيدرك مآل التعاون مع الصهيونية.

هذا وليس من السهل نقل الشعر التأريخي الملحمي الى العربية،فهو حتماً سيتحول الى نثر وإن تمت المحافظة على تقسيمات أبياته،ولقد بذلت غاية الجهد في سبيل الحفاظ على شيء من الروح الشاعرية لكن ليس على حساب الأمانة بالترجمة ودون أدنى تصرف بالمعاني والمادة الإخبارية،ولقد كان بودي الجمع في هذا المجلد بين الفائدة الأدبية الشعرية والفائدة التاريخية،وهذا ماتعذر علي،ولقد آثرت الهدف التأريخي على سواه،فموسوعتي تأريخية بالدرجة الأولى.

لاشك أن القارىء العربي والباحث بات الآن يمتلك مادة شاملة حول أحداث الحملة الثالثة،التي كانت الفيصل بين جميع الحملات،والله الموفق والمستعان وله دوماً الحمد والشكر،ومنه جل وعلا أستمد العون لاكمال هذا المشروع الذي سيصل الى ستين مجلده.

والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين.

سهيل زكار

دمشق ٢٦ محرم ١٤١٩هـ

٢٢ أيار١٩٩٨م

مدخل

للشعر المقدم هنا قيمة استثنائية لكل من المؤرخ وتلميذ الأدب الوسيط ، فبين جميع الروايات التي تحدثت عن صليبية رتشارد وكتبت من قبل الذين عاشوها يقدم كتاب أمبرويز الحامل لعنوان « تاريخ الحملة المقدسة » وكتاب « رحلة الملك رتشارد» أكمل روايات فيها إحاطة بما حدث ، نمتلكها حتى الآن ، فهذان الكتابان يغطيان بالفعل الجزء الأعظم من معلوماتنا الواقعية حول هذه الحملة التي كتب لها الاحباط ، ومرويات شهود العيان دوماً ثمينة ، وقيمتها مضاعفة بالنسبة لأحداث العصور الوسطى ، لأن الذي بقي لنا ووصل إلينا لا يتعدى القليل من المدونات ، وبالنسبة لكتاب « تاريخ الحملة المقدسة » هو كتاب شاهد عيان ، وهو كتاب بالنسبة لعدد كبير من العلماء المختصين مقبول كما هو ، ومثمن ومصدق ، وكما سنذكر في المستقبل في هذا المدخل ، يعد النص الذي نقدمه الآن نسخة طبق الأصل عن الرواية المباشرة لواحد كان قد رأى الأحداث التي تولى وصفها ، ولدينا من الأسباب ما يدعونا الى الاعتقاد أن النص الحالي قلّد النص الأصلي ونسخه بشكل صحيح ودقيق الى أبعد الحدود ، وأنه قد كتب بعد أمد وجيز من انتهاء الحملة الصليبية ، وعلى هذا يمتلك قيمة وثائقية ويساوى الى أبعد الحدود الرواية الأولى المباشرة.

أهمية الشعر

يحتل هـذا الشعر كقطعـة أدبية وفنية مكـانة فـريدة ، ويمثـل حال الانتقـال فيما بين وضع الحكـايات البطـوليـة لأناشيـد الأعمال وبين الروايات المصنفة نثراً من قبل كتاب مثل فلهارديـن وجوانفيل ، ومهما كـان موقفنـا تجاه النظـريات المتعلقـة بـأصل الملحمـة التـي قدمهـا جوزف بيـدير والذين اتبعـوا خطاه، يمكننا بثقـة أن نفترض أن انسان العصور الوسطى تقبـل بمثابة حقائق ما جاء في حكـايات شارلمان ، ووليـم أوف أورانج ، ودون أوف مينيـس mayence وهي الحكايات التي زودت أناشيد الأعمال بمادتها ، وبـذل الشعراء جهوداً كبيرة في سبيل تأكيد مصـداقية حكاياتهم ، وطوقوا هذه الحكايـات وأحاطوها بشيء يشبه الأجـواء البطولية المثيرة ، مـع أنهم يروون حكايـات حوادث يفترض أنها وقعـت قبـل ثـلاثمائة سنـة أو أربعمائة قبـل ولادتهم ، وصلب هذه الحكايات بالنسبة لهم تاريخ قديم .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر لدينا في التاريخ الذي بين أيدينا كاتب يتولى حكايـة وقائع حديثة كانت ما تزال قـائمة بذاكرة أناس سمعوا كلماته أو قرأوها ، ولقد تولى سرد روايـاته بشعرمنظوم وكان هذا بـالنسبة للـذين كـانوا لا يعـرفـون اللاتينيـة فصلاً عظيماً مـن التاريـخ المعاصر، ولدينا هنـا مراسل تولى بالدارجة روايـة أخبار آخر الأحداث في الصراع في سبيل خنق الاسلام وإبقـاء الغرب الأوروبي للمسيحية ، وقد كتب نظماً لأنـه كان شاعـراً جوالاً ومغنياً ، تـدرب على فن الكتابـة وكان الشعر المنظوم هو الوسيلة الطبيعية والمتـوارثة في رواياته حكاية تطلب الحال قـراءتها بصوت مـرتفع مسمـوع ، ولقد روى وقـائع وحكايـات تناولت أكثر من مسائل زحـف الجيوش ومجيء الحكام خلف بعضهم بعضـاً، والخلافـات بين الأسر الحاكمـة ، لقـد حكـى لنـا كيـف عـاش

الانسان العادي وشعر، وشرب ونام، وجاء من بعده فيلها رديـن وجوانفيل، وكانا ممن انتمى الى الارستقراطية كما كانا من العسكريين، وقد قدما رواياتيهما نثراً لأنهما كانا رجلا أفاعيل لا يمتلكان البراعة على نظم الشعر ومعهما جاءت كتابة التاريخ بالدارجة الى الوجود، والذي كان موجوداً قبلهما أولاً الكتابات باللاتينية التي قدم أصحابها الأخبار السياسية والعسكرية الجافة، وكان في الجهة المقابلة «أناشيد الأعمال» الحاوية لكميات هائلة من التقاليد، والأساطير، والدعاية والخيال، وأما الآن فقد بتنا نمتلك بدايات الكتابات التاريخية، وفق معاني هذا الاصطلاح المعاصر.

مصادر الشعر وعلاقته بكتاب

رحلة الملك رتشارد إلى أراضي القدس المقدسة

جاء كتاب «تاريخ الحملة المقدسة» الى النور للمرة الأولى عندما نشر غاستون الباريسي طبعته المحققة من النص مع مواد نقدية محكمة الصنعة، وكان ذلك سنة ١٨٩٧، وكانت مخطوطة هذا الكتاب مودعة على رفوف مكتبة الفاتيكان منذ قرون دون أن تثير انتباه أحد، وذلك في وقت تقبل فيه مؤرخو الحروب الصليبية النص النثري من التاريخ واعتمدوه، وأعني بذلك «حملة الملك رتشارد» التي أعطتنا رواية نظيرة، لكن تختلف بعض الشيء في تفاصيل الحوادث المروية من قبلهما، وبعدما درس غاستون الباريسي العملين معاً، قدم في مدخله الدراسي بعض المحصلات التي توصل اليها فيما يتعلق بناظم الشعر وأصالة عمله، وجرى فيما بعد تأكيد بعض هذه المحصلات ورفض بعضهما الآخر من قبل الأبحاث التي جاءت من بعده.

وأطلق ناظم الشعر على نفسه اسم أمبرويز في كثير من الأماكن في شعره ، واستخلص غاستون من هذا أن أمبرويز هذا كان حاضراً شخصياً وشاهداً لمعظم أحداث الحملة الصليبية الثالثة التي تولى حكايتها، وعلى هذا من المتوجب تقبل روايته على أنها رواية شاهد عيان ، باستثناء جزء الرواية الذي يعالج حصار عكا قبل وصول رتشارد ملك انكلترا ، وفيليب ملك فرنسا ، وظهورهما على مسرح الأحداث ، وأوضح الشاعر بشكل محدد عدم امتلاكه لأية معلومات شخصية حول مجريات هذه الأحداث ، التي مع هذا احتلت شطراً كبيراً من شعره (الأبيات ٢٣٨٧ ــ ٤٥٦٨) ، لكنه رواها اعتماداً على واحد سواه ، ولقد شغلت هذه الرواية مواد الفصل الأول من كتاب الحملة وتوصل العالم الفرنسي الكبير، إثر تأسيسه مناقشاته على مجموعة من أجزاء البينات الداخلية للنص الى مجموعة من الحقائق ، التي أيدتها الأبحاث المستفيضة وصححتها بالتفاصيل ، لكن ليس بشكل أساسي، وكان ما توصل اليه هو : لم يكن أمبرويز لا فارساً من الفرسان ولا رجلاً حمل السلاح ، كما أنه لم يكن كاهناً ، بل كان قارئاً جيداً للشعر الفرنسي في أيامه ، الأمر الذي أشار اليه في عدد كبير من النقاط ، وقد عرف قليلاً أو لا شيء من الأدب اللاتيني ، وكان وفق جميع الاحتمالات مغنياً جوالاً أو شاعراً محترفاً ، وكان من أصل نورماندي ، ثم إن إشاراته المتوالية لشخصيات غير معروفة من أحواز منطقة افرو Evreux تسوغ افتراض أنه كان شخصياً من أبناء تلك المنطقة ، ومخطوطة الفاتيكان هي النسخة الوحيدة المعروفة أنها بقيت من نسخ الكتاب ، ويبدو أنها كتبت في انكلترا في حوالي نهاية القرن الثالث عشر، وعلى الرغم من حقيقة سماتها الأنكلو ــ نورماندية ، إن البينات المتوفرة لا تبرهن أن الأصل تمّ نظمه بذلك اللسان ، كما أننا لا نمتلك ما يبرهن على العكس .

وفي الوقت الذي يمكن فيه قبول تعليلات غاستون الباريسي والوثوق بها ، يبدو أن محصلاته فيما يتعلق بأصل الشعر وعلاقته «برحلة رتشاد » اعتمدت على افتراض ما هو موائم أكثر مما هو مقنع ، وباختصار أمامنا في واقع الحال نصين : واحد هو تاريخ كتب نثراً باللاتينية ، والثاني رواية شعرية كتبت بالفرنسية القديمة ، ويقدم هذان النصان ـ مع استثناء واحد ـ رواياتين عن الحملة الصليبية الثالثة متشابهتين بالكلمة والمقطع مما يُظهر بداهة وجود علاقة بينهما لايمكن الجدال حولها ، والاستثناء هو ما تقدمت الاشارة إليه من أن الشعر يحتوي على إضافة هي رواية عن حصار عكا قبل وصول ملكي انكلترا وفرنسا ، وبالنسبة لهذه الإضافة نلاحظ هنا أن التماثل بين العملين أقل أهمية مما هو في أي مكان آخر ، حيث التناظر واضح بشكل كامل .

وقبل اكتشاف « تاريخ الحملة المقدسة » كان مقبولاً بشكل عام أن كتاب « رحلة رتشارد» هو عمل أصيل من انتاج رجل دين اسمه رتشارد ، أسهم شخصياً في الحملة الصليبية وكتب إما بناء على طلب من أو تحت اشراف وتوجيه راعي دير الثالوث المقدس في لندن ، وجاء هذا على الرغم من حقيقة أن كتاب De expugnatoin Terrae sanctae persaladium Libelleec وهو واحد من بين الشواهد القليلة المتبقية ، ذكر بكل بوضوح ودون وجود أدنى إمكانية لسوء الفهم بأن كتاب الحملة قد ترجم من الفرنسية ، غير أن ستب STUBBS الذي تولى إخراج الطبعة الأساسية من كتاب الرحلة أكد بدون تردد : « أنه من المحال أن يكون الكتاب كتاباً مترجماً » وكان قد كتب هذا عام ١٨٦٤ عندما نشر مجموعة من المصادر الأساسية عن حكم رتشارد ، وقد ساق عدداً من البراهين ليوضح أن مؤلف الـ Li-bellus لابد أنه كان مخطئاً أو مضللاً ، وقبل بالقول أنه إذا وجد أي

نـوع من الترجمة لا يعـدو وضـع بعـض الملاحظات التـي وردت ودونـت بـاللغـة الدارجـة الجافـة عما حـدث أثناء الـرحلـة ووضعهـا بالـلاتينيـة الرسمية، توصل غاستون الباريسي الذي أنقذ من الاهمال شعر أ مبرويز الـذي طـال دفنـه ، الى أن هنـا المصـدر الـذي تـرجـم عنـه الكـاهـن الانكليزي كتـاب « الرحلـة » وبذلك أهمل أو رفـض بالتفصيـل حجج ستب ، التـي كانت طبيعتها غير ايجابيـة تماماً ،وأكد أن متابعـة النقاش حولها عملاً ليـس مجدياً بعدما اكتشفنا الأصل الفـرنسي من الكتاب ، الذي تـولى رتشارد التابـع لدير الثـالوث المقـدس وضعه بالـلاتينية ، وصرح بـوضـوح أن رتشارد قـام عـن عمـد بانتحـال الكتـاب وأراد أن يضلل الناس ويجعلهم يعتقدون أنه شـارك في متاعب ومفاخر الحملة الصليبية وكان شاهد عيان للاحداث التي تولى رواية أخبارها .

وناقـش المسـائل وجـاءت مناقشـاتـه بشكـل أسـاسي حسبما يلي، : أولاًيحتوي النص الـلاتيني على عدد كبير من آثار كلمات شعريـة منظومة التي يـوجد بعضها في عدد كبير مـن أبيات شعر أمبرويز يضـاف الى هذا هناك بعـض الأسماء المزدوجة التي لا بـد أنها وجدت في بعـض أجزاء الشعـر وقد فقـدت مـن خـلال اهمال النساخ ، وثـانيـاً يـوجد في نـص الكـاهن رتشـارد اللاتينـي بعـض الأخطاء ، أو التنـاقضات ، الأمـر الذي يمكن شرحـه فقط على أساس الافتراض أن رتشارد لم يفهـم النص الفرنسي الذي اعتمد عليه ، وفي احدى الحالات لم يكن معتاداً على أدب الملاحـم الفـرنسيـة القـديمـة ، ممـا قـاده إلى اقتراف بعـض الأخطـاء المضحكـة ، مثل الـذي تعلـق بـأنغولانـدAngoland الذي كـــــان واحداً مـن الشخصيات المعـروفة في ذلـك الأدب ، ولعل الأهـم من هذا كله حسـب تأكيدات غاستون الباريسي أن الكلمات والمقاطع التـي وردت في نـص رتشارد والتـي ليـس هنـاك ما يـوازيها في الشعـر الفرنسي تظهر من خلال الفحص أنها كـانت كلمات للزينة أو مجرد ألفاظ

بلاغية ، وهـي على هذا لا تضيف شيئاً لحقائق الروايـة ، لأنها بالأساس نوع مـن أنواع العروض التي هـدفت الى إظهار البراعة الأدبيـة وسعة المعرفـة ، التي غالبا مـا استهدف رجال الـدين للعصور الوسطـى من ورائها بهر عيون قرائه ، وأكد ناقدنـا أنه من غير المتصور أن يقدم شاعر على تـرجمة هـذا النـوع مـن العمل التـزيينـي الى لغـة سهلـة وروايـة شعرية مباشرة هي التي نجدها في التاريخ ، هذا من جهة ومن جهة أخـرى ، كثيراً ما حـدث أن قـام المتعلمون الـلاتين بتـزيين الكتابـات السهلة التـي دونت باللغـة الدارجة بمثـل هذه الورود الأدبيـة التي رأوا أنها ضرورية للرفع من شأنها .

وبالتخلي هكـذا جملة واحدة عـن الأجزاء الموجودة في نـص رتشارد التي لا نظير لها في « التاريخ» أهمل غاستون الباريسي ، أو شرح بطريقة غير مـرضية مجمـوعـة متنوعـة من البينـات لـدى قيامـه بـالمقارنـة بين الكتابين ، وعـرض ذلك أمام عين القارىء ، فقـد قام رتشارد بـالحقيقة بتقديم قطـع عديدة من المعلومات ، لا يحتـاج المرء الى خيال خصب ليقـول إنها تـزيين بـلاغـي ، ومن ذلـك بين كثير : الـوصـف المفصـل لرحلـة رتشارد من تـور الى فيزلي ، ومن فيـزلي الى ليون ، والاجتماع فيما بين الملك رتشارد وتـانكرد في صقلية ، والخصام بين البيـازنة والجنويين ، والتفاصيـل المتعلقة بوصـف جغرافية كريـت ، وأسماء الأساقفة الثـلاثة الذيـن كانوا حضـوراً أثناء زواج الملك ، وروايـة الرحلة التـي قام بها الملك لتفحـص غزة والـداروم ، وعدد كبير من التـواريخ المحـددة ،وهذه لائحة من الممكن اطالتها كثيراً.

وعلـل غاستـون الباريسي وجـود هذه المواد الاضـافية في « الحملـة» بواحد من الاحتمالات التالية : فـذلك كان إما بسبب (١)أن هذه المواد استقيت مـن كتاب رحلـة رسمي عـن حملة الملـك رتشارد ، أو (٢) أنها أضيفـت من قبـل مصنـف الكتاب الـلاتينـي من خـلال معلـوماتـه

الشخصية أو من خلال مصدر غير محدد ،أو (٣) أنها وجدت أصلاً بالأصل الفرنسي الشعري ، لكنها حذفت أو فقدت من قبل النساخ الذين قاموا بتحويل النص ونسخه ليستخدم من قبل الأجيال القادمة ، وفي الوقت الذي هو صحيح أن هذه الشروح بالنسبة لبعض القضايا قائمة في نطاق مملكة الاحتمالات ، صحيح أيضاًوبشكل مساوٍ أنها تستند على الحدس وليس على البرهان .

ومن المتوجب أن نشير الى حقيقة أن أمبروز لديه بعض المواد التي لا يوجد ما يعادلها في «الرحلة» من ذلك يمكن أن نذكر على سبيل المثال التفاصيل المتعلقة بالرسائل التى أرسلها الملك تانكرد الى الملك رتشارد ، وأسماء رجال الكنيسة الذين أعدوا شروط السلام فيما بين الحاكمين ، (البيت ١٠٠٧ وما يليه) وكذلك الاتيان على ذكر النسب الرفيع لغي دي لوزغنان (البيت١٧٢٢ وما يليه) والدعوة المستعجلة من الملك فيليب الى الملك رتشارد (أبيات ١٨٧٩ ــ ١٩٠٦) وأشياء أخرى كثيرة .

وقامت كيت نورغيت التي كتبت في سنة ١٩١٠ بإخضاع القضية الى مزيد من التحليل ، ففي الوقت الذي أعطى فيه غاستون الباريسي سنة ١١٩٦ بمثابة التاريخ المحتمل لنظم الشعر الفرنسي ، قدمت الآنسة نورغيت دليلاً على أن التاريخ ينبغي أن يكون فيما بين أيلول ١٢٠٣ وتشرين الثاني ١٢٠٧ ، ورسا برهانها على أن اشارات أمبرويز بصيغة الفعل الحاضر وبصيغة الفعل الماضي الى مختلف شخصيات الحملة الصليبية ، قد لا تحمل ما يقنع الى الذين اعتادوا على تسيب استخدام صيغ الأفعال في الفرنسية القديمة ، ومع هذا قدمت قضية مقنعة ، فبعد ما درست « الرحلة » بطريقة مماثلة هذه الرحلة التي وصلتنا من خلال ثلاث مخطوطات توصلت الى المحصلات التالية :

فمن خلال النسخة الأقدم للرحلة ـ مما هو متوفر لنا الآن ـ لم

تكتمل هـذه النسخة حتى مـا بعد ٦ ـــ نيسان ١١٩٩ ، وأن الخاتمة في مخطوطـة (جـ) مـن المحتمل أنها أضيفـت ليس قبـل ١٢٠٢ ، وأن فقرة واحدة في (lib,i) قد كتبت قبل أيلول ١١٩٢ ، وأنه من الناحيـة التأريخية يحتمل أن الكتاب كلـه ـ باستثناء خـاتمة مخطوطة (جـ) حسبما هي الآن ـ قد كتب قبل هذا التاريخ .

ولاحظت أن هناك بعـض الفقرات التي تتعارض مـع هذه المحصلة ، فعللت ذلك وردته الى احتمال أنه أقحم بـالنص فيما بعد ، وبالفعل لا نمتلك سبباً لرفـض قولها بـأن :« التاريـخ والرحلـة قد صنفـا في زمن متقارب من بعضهما بعضاً » ، لكن البينات التـأريخية « غير كافية لتقرير أي واحـد من الكتـابين بشكلـه الأصيل هـو الأقـدم »وبعـدما رفضـت الآنسـة مورغيـت إلغاء غـاستـون الباريسي وحـذفـه لرتشـارد الثالـوث المقدس ووصفت اسقـاطه له على أنه عمل مشين ، مضت نحـو حياكة ـ لكن بالنسبـة لتفكيرنا ليس نحو البرهنـة ـ فرضية ، شـارك ـ وفقاً لها — كل مـن رتشارد وأمبرويـز في الحملة الصليبيـة ، وكانـا في الحقيقة صديقين وأبنـاء لمهنة الكتابـة ، وفي الوقـت الذي أسهمت فيـه الآنسة نـورغيت اسهـاماً عظيماً في حـل هـذه المسألـة ، إن كتلة البراهين التـي جمعتهـا كما يبدو غير كـافية لتسـويـغ استنتاج ، لعـل الأفضل أن نقـوم بعرضه بكلماتها:

«ذهب شـاعر نورمانـدي اسمه أمبرويز ، ورجل ديـن انكليزي يفترض أنه كان ريتشارد «الداوي » الذي كـان شماساً في دير الثالوث المقدس في لندن ، مع بعضهما في الحملة الصليبية بمثـابة رفيقين وصديقين، وفي أثناء الحملة دوَّن رتشارد بعض الملاحظـات إما بالفرنسيه أو بالـلاتينية ، حول ما عاناه احـدهما أو كلاهما معاً بشكل خاص والحشد كلـه بشكل عام ، كما دوّن أيضـاً ما تـوفـر له مـن معلـومات ومـا استطـاع أن يجمعه حـول حصار عكا ، من البداية حتى وصـولهما الى هناك وقد تولى وضع جزء من

هذه الملاحظات على شكل عمل أدبي كامل الى حد ما ، وفعل ذلك قبل نهاية الحملة الصليبية ، ثم قام بعد سنوات بتصنيف الجميع واخراجهم على شكل كتاب ، هو كتابه الذي وصل إلينا، لكن في الوقت نفسه ، وقبل أن يقوم بهذا العمل، ربما كان قد أعار مسودته الاولى لصديقه النورماندي ، وأن ذلك كان وهما ما يزالان في الأرض المقدسة ، وسبب الاعارة لتتخذ قاعدة لمدونة أخرى حول الحملة الصليبية نفسها، التي عزم الكاتب الأخير على تصنيفها على شكل أناشيد الأعمال التاريخية ، وبالنسبة لما يتعلق بصلب الرواية التاريخية ، كان الذي فعله أمبرويز هو ترجمة ملاحظات رفيقه ، ولعل ذلك كان من اللاتينية الى الفرنسية ، أو ربما فقط نقل من النثر الى الشعر ، وتولى الحاق اضافات وحذف وغير حسبما اقترحت عليه أحكامه الخاصة ، وحسبما زودته به ذاكرته حول ما وقع ، وبالنسبة لمدخل التاريخ أردع أيضاً ما التقطه من الذين كانوا موجودين على مشهد الأحداث قبله ، ومن جانب آخر لا بد أن كتاب رتشارد تلقى أيضا اضافات وتعديلات من مصنفه عندما شرع في اعادة النظر به من أجل نشره ، لكن من الواضح أنه لم يراجع مراجعة نهائية من قبله ، وهكذا ظل يحتوي على بعض النواقص والاضطرابات ، مثل الضياع بشأن أنغولاند ، والاضطراب بشأن غارنيير اوف نابلوس ، وحول فدية وليم دي برو، وهي أمور لابد أنها كانت موجودة في ملاحظاته الأساسية ، لكنها نسيت في المعسكر وسط ضجيج الحرب ، الذي لم يترك له فرصة ليفكر بها بشكل هادىء ، ولهذا بقيت دونما تصحيح وكررت من قبل ناسخ آول فناسخ آخر ، ومن نسخة أولى الى نسخة أخرى» .

وكلما تعمق الانسان في فحص هذين الكتابين ودقق في ذلك ، كلما اتضح له وتصور شيئين : أولهما إن شعر أمبرويز لا يمكن أن يكون ترجمة من «الرحلة » وثانيهما إن « الرحلة» لا يمكن أن تكون ترجمة عن أمبرويز ،

ومع هـذا من الواضـح والبديهي إن الكتـابين بلا شك ولا نكـران قريبين مـن بعضهما مـن بعـض الجوانـب ، وتـوصـل المحققـون لهذه الطبعـةالى محصلة تفيد بأن الكتابين صدرا عن مصـدر واحد هو الآن مفقود ، وكانوا مسرورين كثيراً عندمـا وجدوا أن السيد ج . غ . أ دواردز قد تـوصل من خلال دراسـة نافذة ومعمقة الى النظـرية نفسها ، وعرض كميـة كبيرة من البراهين تؤيـد ما ذهب إليـه أن المؤلف غير المعـروف للأصل المفقـود قد كتـب بالفـرنسيـة،وربما كتـب نثراً،ونحـن نعتقـد أن الافتراض الأول بين هذيـن الافتراضين معقول،لكن الثـاني قائم على بينـة حدسية. وبـالنسبة لموقـف السيـد ادواردز الكامـل نشير هنـا الى بحثـه الـذي سوف نغـامـر فنضمـن هنا فقـط ملخصـاً لبعض الأجـزاء الهامة منـه،فـإحدى النقـاط الهامة-على سبيل المثـال-تحتوي على اشارتين الى أنغولانـد،الملك المسلم الـذي ظهـر في نشيـد أعمال كتـب بـالفـرنسيـة القـديمـة تحت اسـم أسبريمونتAspremont،وأشار«التاريخ»الى مدينة مسينا كما يلي:

إنها بلدة جيدة وذات موقع جميل

في صقلية،وتطل على

بيت النور(الفاروس)الذي منه يرى الانسان

ريغيو التي استولى عليها أنغولاند

وهنا اشارة الى معلـومات صحيحة حول محتـوى الأسبريمونت،أي أن أنغـولاند قـد استولى على ريغيـو بالقـوة،وتتحدث الفقـرة النظيرة لهذه في الرحلة عـن مسينا كما يلي:« Situ Amoena et plurimum com- modo in confinio siciliae et Risae quae illi famoso Agolando dicitur olim fuisse 1ro servitio suo collata»

ويمكن أن يعنـي هذا فقـط أن الكاتب عـدّ روغيو أنها قـد منحت لأنغولاند بمثابـة اقطاع مقابل خدمات جرى تقديمهـا،وبناء عليه اعتقد

أن أنغولاند كان باروناً مسيحياً،ووفقاً لما قاله غاستون الباريسي هذا يعني أن مؤلف«الرحلة» قد أساء فهم«تاريخ الحملة المقدسة»وأخطأ في ترجمته،وتبعاً لما ذهبت اليه الآنسة نورغيت كان الكاهن الذي كتب«الرحلة»غير متمكن من فهم الأدب اللاديني،فسقط في تلك البقعة وأساء فهم بعض قطع أسطورة وضعت أمامه بوساطة كلمات الفم،وقد شاهد أمبرويز الغلطة في ملاحظات صديقه فتولى تصحيحها بهدوء وسرية داخل نصه.

وتظهر مصاعب هذين الشرحين عندما يدرسا في ضوء الاشارة الثانية الى أنغولاند،فقد كتب رتشارد الثالوث المقدس في الكتاب الخامس الفصل(٢١)مايلي:«وصل أنغولاند الذي كان الأعظم قوة،مع قوات اسلامية لايمكن عدّها بالنسبة لأي انسان،وبدون عون الرب،الى ريغيو،وهي مدينة في كالبيرا».

ومن الواضح تماماً،ومن البديهي أيضاً أن كاتب هذه الكلمات قدم بشكل صحيح أنغولاند نفسه الذي أشار اليه من قبل بطرائق قابله للانطباق فقط على مسيحي،غير أنه لم يحصل على المعلومةمن «التاريخ» الذي لاتحتوي فقرته على أدنى ايماءه مهما كان نوعها الى الأصل الاسلامي لأنغولاند،وذلك على الرغم من الوصف الذي قدمه غاستون الباريسي لهذه الفقرة من أنها أكثر دقة من الفقرة التي تقدمتها،فقد جاء نص هذه الفقرة كمايلي:

وعندما قاد حشوده الى روما

عندما،أنغولاند،مع قوة كبيرة

جاء من البحر الى البر في ريغيو

في كالبيرا،تلك المملكة الغنية

وبكلمات أخرى يمكن القول إن الكاهن الذي أخطأ في الفقرة الأولى في ذكره لإحدى الحقائق قد تولى فيما بعد تصحيحيها حسبما ذكرها في الفقرة الثانية،وهو لم يحصل على تلك الحقيقة من أمبرويز،وقد ناقش هذا السيد ادواردز بقوة،ولكن محصلاته من الصعب البرهنة عليها،ولنستمع اليه وهو يقول:«ويلحق ذلك محصلة أخرى،فإذا أخذنا هاتين الفقرتين حول أنغولاند معا،لانبرهن على أكثر من السلبية،وبالنسبة لكاتب الرحلة هولم يلاحظ في المقام الأول أن أنغولاند كان مسلماً،ومع ذلك وصفه في فقرة تالية بشكل صحيح على أنه كان مسلماً،ويعلل هذا بأنه قد تنبه بفعل ما في الفقرة الثانية هذه،لكن لايمكن أن نقول أن وسيلة التنبيه كانت«التاريخ»وبالنتيجة لابد أن التنبيه كان بوساطة شيء آخر،وعلى هذا لابد أن غاستون الباريسي قد تبع مشاعر صحيحة عندما علق على وجود«تناقض»قائم فيمابين هاتين الفقرتين،لكن كيف يمكن شرح هذا التناقض؟ وكيف يمكن لكاتب أن يعلم في آن واحد وأن لايعلم الحقيقة نفسها؟والشرح الطبيعي الأفضل لهذه القضية هو المتوفرعادة بالنسبة لمثل هذه الظاهرة لدى الكتّاب الآخرين،ويساق الانسان على هذا الى محصلة أن مصنف«الرحلة»لم يكن المؤلف الأصيل،لكنه كان يعيد انتاج عمل كاتب أصيل،لئن كانت-كما حدث-ايماءاته غير واضحة في ذاتها،هو لم يفهمها دوما،ومن المفترض أنه بوساطة هذا الكاتب الأصيل تنبه صاحب«الرحلة»عندما وصف بشكل صحيح في الاشارة الثانية لأغولاند،على أنه كان قائداً مسلماً.

ويظهر اضطراب آخر وتشوش من قبل كاتب الرحلة في الإشارتين الى غارنيير دي نابولس،ففي إحدى النقاط عدّ بشكل واضح أن غارنيير دي نابولس ومقدم الاستبارية شخصين متميزين عن بعضهما تماماً،ثم مالبث بعد قليل أن أشار الى غارنيير دي نابولس على أنه مقدم الاسبتارية،وهكذا-كما لاحظ السيد ادواردز- بدا وهو يعرف ولايعرف

بالـوقت نفسه الحقيقـة نفسها،ومن البداهـة بمكان أيضاً،كما أشـار السيد ادواردز،أن مثل هـذه التناقضات مع أمـور أخرى،من الصعـب أن تتواءم مع فرضيـة أن رتشارد من الثالوث المقـدس،قام بكتابة كتـابه على أساس الملاحظات الأولى التي صنعت أثناء مجريات الحملة.

وهناك مسـألة أخـرى أولتها الآنسـة نورغيـت كثيراً من العنـاية،لكـن السيـد ادواردز لامسها بشكـل لطيـف،ومرّ بها مـرور الكـرام،وهي وجـود عددكبير مـن الفقرات في «تاريـخ الحملة المقدسـة»أشار فيها الشـاعر الى مصـادر مكتوبـة إنما غير محدودة، استقى منهـا مـواده،واستخدم عبـارات مثل:«هكـذا جاء في التاريـخ»و«وهكذا ذكر في الكتـب»و«وهذا ماأكـدته الكتابـات»ومايشبـه هذا،وعـدت الآنسة نـورغيت تكـرار هذه العبـارات بمثابـة دليـل داعـم لنظـريتهـا القائلـة بـأن أمبرويـز كـان يترجـم عـن «الرحلـة»،وبشأن هذه النقطة ينبغي صنع ثلاث ملاحظات:الأولى ،حسبما لاحظـت هي نفسهـا-إن مثل هـذه الصيغـة سلعة استخـدمت دومـاً في تجارة شعراء الغنـاء في العصور الـوسطى ،الذيـن حاولوا تقـديم نـوع من أنواع التوثيـق لحكاياتهم الخياليـة والمثيرةجداً،مثل القول:«أنـا رأيت هذا مكتوبـا،ولابد أنه كان صحيحـاً»،ثم إن تكرار هذه العبـارات ليس عظيماً بشكل لافـت للانتباه في شعر تجاوز الاثنـي عشر ألف بيت،وهـو لايمكن أن يبرهن على أن أمبرويـز كان يترجم مـن اللاتينية،والثـانية:من الـواضح أن «التاريـخ»قدكتـب من أجـل الالقاء بصـوت مرتفـع،وليس مـن أجل القـراءة،ولقـد خاطـب الشـاعـر بنفسـه في بعض الأحيـان مستمعيـه ولم يخاطب قـراءه،واعتاد المغنـون في العصور الوسطـى بشكل عـام على تلاوة مصادر مكتـوبة،وجديـر بالملاحظة أن رتشارد الثـالوث المقدس قـد أشار مـرتين في التـوطئـة«للـرحلـة»ليـس الى قـراءة بـل الى مستمعين،وهـذه حقيقة،يمكـن لتخمينات السيـد ادواردز أن تشرحها بـوساطـة نظريـة أن الكلمات موضوع السؤال تمثل صدى لشيءظهـر في توطئة الأصل الفرنسي

للكتاب الـذي كان رتشـارد يتولى تـرجمته.والملاحظـة الثالثـة،وربما الأكثر أهمية،هي وجـود عبارات«هكذا ذكر في الكتاب»وهـذا متوائم تمام المواءمة مع الفرضية التـي نعتقد أنها فرضيةصحيحة،وهي:إن الكتـابين قد صدرا عن أصل عام.

وبـرأي المترجمين الحاليين هنـاك حقـائق أخرى تقـدم امكـانـات لهذه الفـرضيـة،أولاً:في الـوقـت الـذي يسير فيـه المجرى العـام للـروايـة بتناظر،وبطـريقة متطابقة في الكتـابين،تولى أحد الكاتبين حـذف عدد من الحقـائق المحـدودة تـولى الآخـر تضمينهـا،وقد قمنـا بـذكـر بعـض هـذه الحقائق،ويبدو أنـه من غير المرغوب به إثقـال هذا المدخل بقائمـة كاملة بهذه الحقائق،«والرحلة»غنية في اعطاء تـواريخ محدودة،أخفق«التاريخ» في ذكـرها،ولاشـك أن الشـاعر قـد وجـد-كما وجـد المترجم الحالي-أن ذكـر التـواريخ مـربك في الشعـر.وفي جميع الأحـوال،نقترح أن كل كـاتب قـد حـذف تفاصيـل وجدت في الأصـل العـام،قد رآهـا غير ضرورية،ثـم إن ناظـم«التاريخ»بشكـل خاص قد تولى حـذف حقائق كان مـن الصعب عرضها شعرياً.

وفي المقـــام الثـــاني،بصرف النظـــر عـــن الأبيـــات الاضـــافيـــة ٢٣٨٧-٤٥٦٨،هناك نقـاط كثيرة جداً فيها اختلـف الكاتبـان في ذكرهما للحقائق،وبصرف النظـر عن الحقـائق غير المهمة أو مـن السهل تعليلهـا بسبـب وجـود انهيـار جسر الـرون عنـد ليـون عبر الجيـش بقـوارب صغيرة(bargetes) في حين أوضح كتـاب«الرحلـة»أنه جـرى بناء جسر من القوارب،ولدى عـرض شروط المعاهدة التي أبرمت مـع الملك تانكرد صاحب صقلية،قدم كل كاتـب بعض شروط التعاهد التي تجاوزها الآخر صامتاً،وتنطبق صحة الملاحظة نفسهـا على الاتفاقية التي عقدت فيما بين غـي دي لوزغنـان،وكونـراد دي مونتفـرات،وليس بعيـداً عن الصحـة أن نستنتج أنه في هـاتين المسألتين اختار كل كاتب شروط السـلام التي ظن

أنها هي الأكثر أهمية،كما أن الحذف قد وقع لأسباب بديهية أخرى،ففي التاريخ نجد اسم غلبرت تيلبوز،وكان فارساً جاء اسمه باللاتينية جيراردوس ونرى أن الخلاف قد نشأ عن الخلاف في تفسير المختصرات في النص الأصيل،والسبب نفسه هو ربما ضلل الكاتبين في المسألة التي تعلقت بالاسم الشخصي لدوق بيرغندي الذي أورداه على شكل هنريكوس وهنري،في حين كان اسمه بالواقع هيوج،ومن الواضح أن مؤلف«الرحلة»قد صحف قراءة ملاحظة أو كلمة وردت بالفرنسية هي التي أعطت«وسط الخريف»لتاريخ ذكره«التاريخ»بشكل صحيح على أنه كان «وسط-آب»(Miaust) وعلق السيد أدواردز بما فيه الكفاية على هذه الفقرة الأخيرة،وعلى بيت شعر غريب،قال فيه الكاتب اللاتيني بأن الحجاج استراحوا لدى زيارتهم القدس الى «جانب جبل»في حين جاء بالنص الفرنسي«جانب جدار»،ولدى النظرة الأولى قد تكون هذه المسائل غير هامة،لكن السيد ادواردز بين أن عدم أهميتهم يعطيهم أهمية،فبعيد عن التصور الاعتقاد أنهم يمثلون تصحيحات من كاتب لآخر،بل يمكن بسهولة أن يتصورهم ممثلين لتفسير مختلف لنص أساسي محدد،ولفتت الآنسة دور وثي بوفي الانتباه الى خلاف نصي آخر يمضي بالاتجاه نفسه،مع أنها لم تستنتج منه مايبدو لنا استنتاجاً بديهياً،فقد وصفت«الرحلة»رمح واحد من الأمراء المسلمين الأقوياء على أنه:«أثقل من اثنين من رماحنا»،في حين جاء في نص«التاريخ»:«لايمكن أن يعثر في كل فرنسا على رمحين أثقل منه»،ومن الممكن أن نلاحظ في هاتين الفقرتين أنه واضح تمام الوضوح في الفرنسية واللاتينية،أنه من غير الممكن تصور سوء تفسيرهما من قبل أي إنسان كان يعرف مافيه الكفاية ليترجم أياً من الفقرتين،لكن إذا كان كل واحد منهما قد اعتمد على أصل كان أقل وضوحاً،فان الخلاف يبدو على الفور مفهوماً.

وأوضحنا لدى بحثنا للاشارات الى أنغولاند وغارنيير دي نابولس أن

كاتب «الرحلة»اقتيد نحو الخطأ في ذكر الحقيقة،وهناك أخطاء أخرى مماثلة ظاهرة في روايته،فقد ذكر على سبيل المثال خبر مقابلة جرت فيما بين الملك رتشارد وتانكرد،عقدت في كاتانيا،التي قال عنها بأنها قامت في منتصف الطريق فيمابين مسينا وبلرم،ومامن واحد يعرف جغرافية صقلية يمكن أن يقع في مثل هذا الوهم،ذلك أن المدن الثلاثة قائمة على الساحل،وكاتانيا الى حد كبير واقعة الى الجنوب من مسينا،بينما تقع بلرم الى حد ما الى الغرب من مسينا،هذا ولم يذكر«التاريخ»مثل هذا الاجتماع.

ولعله أكثر إثارة الفقرات التي ذكر فيها رتشارد الثالوث المقدس،وأشار في ثلاث نقاط منفصلة عن بعضها بعضاً الى تراجع صلاح الدين الى الداروم،التي حدد موقعها في الجبال،كماوأشار الى نشاطه هناك،وفي إلقاء نظرة عابرة على أي خريطة يتبين أن الداروم ليست قائمة في منطقة هضبية بل موجودة على ساحل البحر،على بعد أميال كثيرة عن مسرح الأعمال المشار اليه في كل مكان من النص،وحدد أمبرويز بشكل صحيح وقائع كل واحدة من هذه الأحوال في النطرون،وكتب المحقق العالم«للرحلة»،طبعاً قبل اكتشاف التاريخ ماعبر فيه عن عدم رضاه عما جاء في النص.

وبالنسبة لما تبقى من خلافات فيما بين الروايتين نضيف هنا ثلاث نقاط يبدو أنهن لم يجذبن انتباه السيد ادواردز:فقد شارك ايرل أوف ليستر في أحد الاشتباكات حيث تعرض للضغط الشديد من قبل المسلمين الذين أحاطوا به من كل جانب،ولدى ذكر ذلك استخدم أمبرويز العبارة التالية: « Quil'avoilent entr'els noie»لتي بات فيها المعنى المجازي للفعل« noyer بديهياً بمرافقة entr'el »،ويبدو أن الكاتب اللاتيني أخذ الرسم الكتابي على أنه حرفي مع أن المتصارعين كانوا قد اجتازوا الجدول الوحيد الذي جرى ذكره في السياق،لأنه نقل الفكرة بكلمات لاتقبل تفسيراً آخر،بقوله:

« In Ipso Flamin Profemodum sub mergerent»

وبعد وقت قصير انقضى إثر الحادث الذي تقدم ذكره تناقش قادة الفرنجة حول حكمة مهاجمة القدس،ونصح الداوية والاسبتارية والبوليان(البلديون)،الذين امتلكوا معلومات صحيحة حول الأوضاع المحلية، ضد مثل هذا الهجوم ،لأسباب عرضها كلا الكاتبان في بعض التفصيل،وفي نهاية المناقشة قدم النص اللاتيني تأكيداً مدهشاً بأن مؤتمرهم وماتوصلوا إليه لم يصغ إليه بقوله:

sed adhuc consilium eorum non om nino eau-»

«ditura مع أن كل شيء في بقية روايته يظهر بوضوح أن نصيحة المؤتمرين لم يصغ إليها فقط بل أخذ بها واتبعت أيضاً،ولايحتوي التاريخ على مثل هذا الذكر،الذي نعتقد أنه تأسس-مثل أمور أخرى-على سوء تفسير للنص الأصلي.

وفيما يتعلق بالروايات التي أتت على ذكر مرض الملك رتشارد التي قدمها الكاتبان نلاحظ بشكل غريب الحقيقة التالية،وهي أنه في حين حاول شماس الثالوث المقدس تشخيص سبب المرض،بشكل عرضي أدنى مما يقدم للمريض،اكتفى المغني الفرنسي وأقنع نفسه بذكر الأعراض،التي لم يشر إليها الكتاب اللاتيني لامن قريب ولامن بعيد،ونقرأ ماورد في الكتابين كما يلي:

« Graviss imam Incunit aegritadinem,quae vuae vuigo Arnoidia voalur, exignotae regionis con stit-utione, cum eius naturali complex ione minus òconcor dante «

mais le reis Richar Ziert malades

Eaveit boche e levres Fades

D'une emferte que deu maudie

Qu'en apele leonardie

ويبدو من المعقول بـالنسبة لنا أن الرواية الأصلية أتـت على ذكر كل من الأعراض والأسبـاب المفترضة للمرض،في حين دون كاتبـانا في نصينا المتبقيان لنا ماعتقده كل واحد منهما هو الأكثر صلة بالموضوع.

ولايمكننا ختـم هذه الدراسـة من دون دعـوة انتباه القارىء للقضـايا الكثيرة التكـرار المتعلقة بـالأعداد،فهنـاك حوالي عشريـن حالـة من هـذا القبيـل،أعطى الكتـابان في إحـدى عشرة منها أعـداداً مختلفة،وفيها تبقـى أعطى أحـد النصوص عدداً في حين لم يعط الآخـر شيئاً،أو اعطى أحيـاناً عـدداً أكبر،ثـم حـدث أن انعكس الحال فـأعطـى الآخـر رقماً أعلى،وفي بعـض الأحيان كـانـت الفـوارق ضئيلة،مثـل في مسـألـة اسطول الملـك رتشارد،حيث ذكـر أمبرويز أن تعداده كان مائة وسبـع سفن،في حين قال النـص اللاتينـي:مـائة وثمان سفـن،وجاءت الفـوارق في بعـض الحالات الاخرى هائلة،ففـي الوقت الذي أكد فيه أمبرويـز أن ثلاثة آلاف صليبي ماتوا من المرض ومـن الجوع أثناء حصار عكا وبعد ذلك،جـاء الرقم عند رتشـارد الثـالوث المقـدس ثـلاثمائة ألـف،ومـن الممكن تعليـل بعـض الخلافـات على أسـاس أن الكـاتبين،أو واحـد منهما أخطـأ في قـراءة،أو لم يصـب في تفسير،الأرقـام الـرومـانيـة الموجـودة في الأصـل المفترض،وفي حالات أخرى مـن الصعب رؤية كيف يمكـن لهذا أن يحدث أو أن يكون ممكنا،ووجـد المترجمون الحاليون أنفسهـم مرغمين على الاعتماد على تعليـل أن أحـد الكـاتبين-أو هما معـا-لجأ الى المبالغـةأو الاختصـار والتقليـل في الأعداد في مختلف النقاط لأسباب تعلقت به شخصياً.

وتؤيد البينـة التي استخرجها السيد ادواردز ونحـن أنفسنا أن الكتابين موضـوع البحث صدرا عـن صيغة عامـة اتخذت أساساً،ونعتقـد أننا على

الرغم من أن دليلاً واحداً من المواد لايكفي بنفسه لتأكيد هذه الفرضية،إن العدد الكبير من المعطيات تشير بالاتجاه نفسه وتشجع على اتخاذ فرضية قوية،ولنعرض القضية من وجهة نظر أخرى تختلف بعض الشيء:نحن رأينا من المتعذر الدفاع عن نظرية أن«تاريخ الحملةالمقدسة»كان مصدر«الرحلة»-كما اعتقد غاستون الباريسي-أو أنه صدر عن«الرحلة» حسبما اعتقدت الآنسة نورغيت،ومامن واحد يمكنه القول ولو للحظة واحدة إن الكتابين مستقلين عن بعضهما،وحتى نحسم الأمور نصل الى محصلة تفيد أن نظريتنا تقدم الشرح الوحيد الممكن للحقائق.

ولابد أن تبقى طبيعة الاصل المفقود مسألة خاضعة للنقاش،وعند السيد ادواردز سببه للاعتقاد أنه قد كتب بالفرنسية،وربما نثراً،وأسبابه التي اعتمدها جيدة بما فيه الكفايةلاقتراح مثل هذه الفرضية،لكنها غير كافية لبرهنتها،ونحن على العموم نميل للاتفاق معه،ونود أن نضيف لما قاله حقيقة مفيدة وموحية في أن عدداً كبيراًمن أسماء الاعلام التي ظهرت في النص اللاتيني«للرحلة»وشطراً كبيراً منها كتب بالصيغة الفرنسيةوليس بالصيغة اللاتينية،وهي الصيغة المفترض ظهورهم فيها لو أن الأصل بذلك اللسان،واذا صح بالفعل وكان النص نصاً فرنسياً قديماً تاريخياً،فهو يشكل نقطة علامة في الأدب،على أساس أنه أول قطعة كتابية نثرية كتبت باللغة الفرنسية،تقدمت بتاريخها بعض الشيء على رواية ذيل تاريخ وليم الصوري وبزمن معتبر على رواية فيلهاردين التاريخية.

السمات الأدبية للشعر

إذا كنا محقين في اعتقادنا بوجود أصل مفقود، كتب — كما هو محتمل

— بالفرنسية، وعنه صدر نص الشعر الحالي، لابد من الوصول إلى محصلة واحدة: لقد سار مؤلف «تاريخ الحملة المقدسة» على خطاه عن قرب وقلد نمطه، ولايسمح التشابه القريب بين «التاريخ» و«الرحلة» باستنتاج آخر، وهكذا إن أي تقدير للمحاسن الأدبية للشاعر الذي نمتلك بالفعل كتابه لابد من إعطائها إلى أبعد الحدود إلى الرجل الذي استقى منه مواده، وبما أننا غير قادرين على تثمين الكتاب الذي لانمتلكه الآن، علينا أن نرضي أنفسنا بتقدير الشعر الذي وصل إلينا، وليس بمقدورنا أن نقرر فيما إذا كان كاتب المخطوطة الموجودة في الفاتيكان هو أو سلفه الذي حمل اسم أمبرويز، لكن من أجل تسهيل العمل استخدمنا ذلك الاسم في تعليقاتنا بمثابة إشارة إلى الرجل الذي كتب الحكاية أولاً، وفي الوقت الذي نؤسس فيه ملاحظاتنا على اسلوب ومحتوى النص الحالي، نحتفظ بالقول إن هذه الملاحظات قد تكون أكثر صحة في وصفها للشخص القائم في الظل الذي زود جهده النص بمادته وقضيته.

وعرض غاستون الباريسي مجموعة من الأسباب الرائعة للاعتقاد أن الشاعر لم يكن نبيلاً ولاكاهناً أو عسكريا، لكنه كان مع جميع الاحتمالات شاعراً محترفاً أو مغنياً جوالاً التحق بجيش الملك رتشارد، وأكدت الأبحاث المستفيضة الفرضية القائلة بأنه جاء من إفرو، وهي مقاطعة في نورماندي، التي أضفى على فرسانها ورجالها المسلحين مدحاً خاصاً لشجاعتهم وثباتهم، ولأن أمبرويز كان واحداً من «الرعايا الأدنى مكانة» بين ذلك الحشد، استطاع أن يعطينا رواية بمثل هذه القيمة، اختوت ليس فقط على ذكر ما حدث، بل على الخلفية العقلية والروحية للأحداث، فقد صور نفسية الصليبي مع جميع أمراضها الغريبة في الفوضى والتسيب، ونادراً ماوصل إلى بلاغة أعلى مما فعله لدى وصفه لسرور الحشود لدى ربحها لمعركة ما، أو لدى تقدمها نحو القدس

واقترابها منها، أو من تصويره لحالة اليأس التي ألمت بالحجاج عندما وجدوا أنفسهم مرغمين على الانعطاف عائدين من المدينة المقدسة، ولقد تقبل الأسباب التي أعطاها رتشارد لرفضه الزحف على القدس وانتقد الذين تعارض موقفهم مع موقف سيده، ومع هذا بكى من أجل القرار الذي أغلق الطريق على الحجاج للوصول إلى الضريح المقدس.

وهو لم يكن عضواً في مجالس اجتماعات قادة الصليبيين، مع أنه روى في بعض الأحيان تفاصيل مناقشاتهم بتأكيد وثقة الذي كان مشاركاً بهم، وهذا ليس بذي أثر عظيم على أي واحد يعرف كيف تأخذ الاشاعات المزيفة والأقاويل المبهمة مكان التوثيق في أي جيش، وكيف تنتشر بين صفوفه عاليها ودانيها، ولاشك أن تحريض الكاهن للملك رتشارد وحثه على أن يتذكر ماضيه الشهير وأمجاده قد نشأت وراجت من خلال حكايات تداولها الناس في المعسكر حول تهور انسان تجرأ على هذه الصورة على مخاطبة قلب الأسد، فضلاً عن هذا يحدثنا أمبرويز عما جرى داخل اطار مجالس صلاح الدين الحربية بالتأكيد نفسه والثقة ذاتها التي ميزت أوصافه لما قاله قادة الفرنجة وفكروا به، ومما لاشك فيه أن الخطابات المعزوة إلى أمراء المسلمين لاتعدو مجرد ماتخيله الفرنجة ورغب فيه تفكيرهم، فصوروا أمراء المسلمين وهم يقولون الأشياء التي —برأي الجيش الصليبي — توجب عليهم التفكير بها وقولها.

ولم يشر أمبرويز إلى نفسه قط وهو يشارك في القتال، وأكد مع هذا أنه زحف مع فوج الحجاج الثاني الذي زار الأماكن المقدسة بعد ابرام الهدنة مع صلاح الدين، وحدثنا عن انفعالاته وهو يسير شخصياً على الطرقات التي سار عليها المخلص، وفي لحظات ذروة الانفعال هذه أو انعدام الانفعال في حياة الصليبيين تحدث بإخلاص واستقامة الانسان الذي شهد الحدث، ثم إن هذا الاخلاص نفسه، وكذلك لهجة شاهد العيان، نراها منتشرة وظاهرة في معظم أجزاء الكتاب، وهي تعطي القارىء قناعة

قوية أنه يصغي إلى إنسان يعرف مايتحدث حوله.

وفيما يتعلق بلهجة الاخلاص، نجد أن عمل الشاعر — مع هذا — ليس دوماً متساوياً بسماته، فلصفحات طوال نراه مع كثير من الهدوء، يسير بخطى وئيدة، ويعرض صف حقائقه بمثابة مسألة حقيقية، بدون أي حماس، أو انفعال أو حرارة شاعرية، بل يتكلم ببساطة وبشكل مباشر، وبثقة، لكن بدون التصلب الملكي الذي جعل من نشيد رولاند شيئاً رائعاً جداً، ويعطينا بنظم مزدوج (دوبيت)رواية مباشرة للأحداث، بلا زيادة أو نقصان، وتدفقه الخيالي خفيف، ونادراً ماتجاوز اطار شعراء التروفير Trouvereللعصور الوسطى، ولقد ردد العبارات المعتادة مثل القول: غطت الأسهم والرماح أثناء القتال الجو وملأت الهواء مثل ثلج ثقيل متساقط في الشتاء، وطارد المنتصرون المهزومين مثلما يطارد الذئب قطيعاً من الغنم لاحول له ولاطول، ولم يتجاوز شاعرنا حدود هذه الجمل وطرائق التعبير.

وتبدو أوصافه لمشاهد القتال محملة بعض الشيء بالنسبة للقارىء المعاصر، مع أن الشاعر بث من خلالهم وباح، كما هو واضح، بشيء من المتعة السادية، التي كان الكاتب في العصور الوسطى يستقيها من تحرك صور أحداث الفيضان وأرض المعركة، وعلى المرء أن يلاحظ بكل بساطة أنه لدى قتال انسان لآخر على أرض المعركة يتشابهان، وتكون هناك الأعلام التي تخفق في الهواء، والسلاح المشرق، وغيوم من النبال والنشاب، وحملات بلا توقف وضربات قوية وشديدة، وأكوام جثث القتلى، ومع جميع هذه الأمور استطاع الشاعر أن يعطي صورة شفافة ويفترض أنها صحيحة حول التكتيكات وتعبئة القوات وتقلبات تيارات القتال وحظوظ النجاح، ولاتخلو هذه الصفحات من الحيوية، ثم إنها ليست بدون قيمة بالنسبة للمؤرخ العسكري الذي يمكنه أن يقرر الحقائق بقليل من الجهد، والذي افتقد إليه هو شعور التصور الصحيح،

فعلى سبيل المثال أخذ وقوع اشتباك صغير شارك به من على الطرفين عدة عشرات من الرجال فقط عند أمبرويز في روايته كل العظمة والتفخيم التي أخذتها معركة أرسوف وإعادة الاستيلاء على يافا، وسلبت أعمال التكرار التي ظهرت في الرواية هذه المناوشات من أهم سماتها المثيرة.

ولم يكن أمبرويز رحالة صاحب ملاحظات خاصة، وأوصافه لطبوغرافية ومناخ وعمران البلاد التي يفترض أنها كانت جديدة وغريبة بالنسبة له، أوصاف ضئيلة نسبياً، وقد أتى على ذكر بعض الأماكن التي زارها في القدس، وروى لنا بعض الحكايات الأسطورية حول أسوار وأبراج عسقلان، وقدم هنا وهناك بعض التفاصيل العرضية التي استقاها من الأساطير الشعبية أو من أناشيد الأعمال، لكن في هذا المجال لايمكن مقارنته مع روبرت دي كلاري الذي جمع معلومات ثرية حول الأشياء الرائعة التي رآها في القسطنطينية، وصحيح أنه ذكر حر الصيف والغبار والحشرات السامة والأمطار الغزيرة، لكن أمبرويز أتى على ذكر هذا كله عرضياً فقط، ومجرد خلفية كافحت ضدها الدراما الشخصية للصليبيين، ويشعر الانسان أن هذه الأمور شغلت في ذاتها قليلاً من اهتمام المؤرخ، على أساس أنها كانت قزمة أمام ما عنته العظمة الروحية للمغامرة.

وعلى كل حال كان بإمكان الشاعر أن يكون دراماتيكياً وحيوياً، وأن يحيك ذلك في حكايته في أبيات سريعة وبارعة، ويحيطها بحزم أرجوانية ملطخة بنار الايمان والسخط، فهكذا كانت على سبيل المثال روايته عن سقوط جسر الرون، وعن الاستسلام المذل لاسحق صاحب قبرص، وبطولة جاك دي أفنس، واغتيال كونراد أوف مونتفرات، وأبيات الهجاء التي قذف بها نحو كونراد لترفعه وابتعاده عما اعتقده أمبرويز أنه طريق الصواب، وفي وصفه لزحف الحجاج خلال فرنسا وهم على طريقهم نحو ساحل البحر واستقبالهم من قبل الشعب حيوية مدهشة وعواطف

شجية.

ومع أنه لم يكن رجل دين، قلة من رجال الدين تفوقوا عليه في صدق تكريس نفسه للقضية الصليبية، وهو تكريس فيه كل الأحكام المسبقة لروح تقية ساذجة، ولقد شارك بشكل طبيعي بما فيه الكفاية بما راج في الأوساط العامة في العصور الوسطى من أن الكافر يعاني أساساً من خطيئة وشرور عدم التعميد، وهذه فكرة رددها نشيد رولاند على شكل صيغة مقررة بأن «المسيحية هي الصواب والكفر هو الخطأ»، وبناء عليه كل مافعله المسلمون هو شر، باستثناء ماحدث في بعض الظروف ـ وهي لسوء الحظ كثيرة ـ التي اختارهم الله فيها ليكونوا أداة عقاب للمسيحيين الفاسدين الذين ضلوا وابتعدوا عن سبل الصواب، لكن على الرغم من هذا كله لم يستطع الشاعر أن يقمع اعجابه ـ رغماً عنه ـ ببراعتهم في الحرب وشجاعتهم، وبفروسية صلاح الدين وأخلاقه، ولقد أسف لكون هذا الرجل لم يكن مسيحياً، «فلو أنه لم يعبد أرباباً مزيفين (كذا) لكان انساناً لامثيل له».

القيمة التاريخية لأمبرويز

أما وقد قدمنا أسباننا للحكم بأن «الرحلة » و « التاريخ » قد قاما على أصل عام مفقود، سنأخذ حريتنا في هذا المقام لاعتبار الكتابين بمثابة كتاب واحد، ولأن نحاول تقدير القيمة التاريخية للأصل،الذي دعوناه اعتبارياً ومن أجل تسهيل العمل «أمبرويز»، وأظهرنا من خلال ملاحظاتنا التنوع والخلافات بين «التاريخ» و«الرحلة»، ومن الممكن تلخيص ذلك بالقول إنه في حين أن «الرحلة» بشكل عام أكثر دقة بالنسبة للعرض التاريخي، وأعظم صحة بالنسبة لأسماء الأعلام، هناك

عـدة حـوادث أعطيـت بتفـاصيل أفضـل في «التـاريـخ»، إنما كـوثيقتين تـاريخيتين لهما المكانـة نفسهـا، وسنحـاول هنا البحـث في قيمـة روايتيهما مقارنة بمصادر أخرى مستقلة.

وكما بينا من قبل، لايمكن عد أمبرويـز أفضل مصدر منفرد حول جميع أحـداث الحملة الصليبيـة الثالثـة، لكنه بـدون شـك ومؤكـد أنه أفضـل مصـدر لصليبيـة رتشارد، وقـد جـرت معـالجة الأحداث التـي جـرت في سـوريـة وقـادت إلى الحملـة الصليبيـة،بشكـل واسـع ـ لكن ليس بدقة وصحـة كـاملـة ـ من قبل التاريخ، في حين نجد «الرحلة» التي اعتمدت على «كتاب ذيـل تاريخ وليـم الصوري»، أكثـر تفصيلاً، لكن ليـس أكثر موثوقية، ولعل أفضل رواية كـاملة حول الحملة الصليبية الثالثة وردت في مصدر واحد هي الرواية التي نشرت قـديماً تحت عنوان «تاريخ هرقل» ثم أعيد نشرها فيما بعد بـاسم «ذيل تاريخ وليم الصوري»، وتقـدم لنا معرفة أن هذا الذيل قـد كتب بالفرنسية القديمة، وكان أمبرويـز قد حذف كلياً أخبار حملة فردريك بربروسا، وقد أوليت هذه الحملة بعض العناية الأكبر من قبل الرحلة، حيث جرى استمداد عـدة فصول من كتاب ذيل تاريخ وليم الصـوري، وكان هذا أكثـر مما تلقاه «التاريـخ»، ومع ذلك «التـاريخ والرحلـة» معاً مختصرين تمامـاً، فضلاً عن هـذا جاءت رواية أمبرويـز عن فيليب أغسطـس عرضية ومتعلقة بصليبيـة رتشارد قلب الأسـد، وواضح أن معلـومـاتـه عـن قبرص ـ بصرف النظر عن تفاصيل الاستيلاء عليها ـ خفيفـة جداً، ومـع هذا لم يقـدم أمبرويـز أفضل روايـة عن الحمـلات في فلسطين، ولاعـن القتال في مسينـا ولافي قبرص، وكذلـك الأحداث التـي وقعت في المعسكر أمام عكا.

ليس في نيتنا هنا القيام بتحليل تاريـخ أمبرويز بالتفصيل، لكن مقارنة مختصرة جداً لهذا الكتاب مـع مصادر رئيسية أخرى عـن الحملة الصليبية الثالثة تضيف إلى تقـديرنا للأهمية التاريخيـة لمؤرخنا، وعلى رأس الروايات

الغربية ماجرى تدوينه في كتاب «هرقل» وفي «جستاـهوفدن» (الذي هو بالفعل نفسه) ولدى ديسيتو، وديفايز Devizes، وريغورد Rigord، وفيما يتعلق بما جرى أثناء حصار عكا مع الأحداث التي وقعت قبل وصول رتشارد، من الممكن أن نجد معلومات اضافية في روايات هيماروس Haymarus، ولبللوس Libellus أما فيما يختص بالمصادر المشرقية: يتصدرها بالأهمية (العماد الأصفهاني) وبهاء الدين،وهناك أيضاً المواد الاضافية لدى ابن الأثير وأبو شامة. وابن خلكان وأبو الفرج ابن العبري، وأما بشأن الخلفية التاريخية السورية فلبللوس وهرقل لديهما المعلومات الأكثر أهمية، ويظهر أمبرويز في أسوأ أحواله في هذا المقام، غير أن أمبرويز هذا أقر صراحة أن ماأخبرنا به عن هذه الأحداث، تعرف عليه من كتابات الآخرين، وهو لايمتلك معلومات شخصية حول ذلك، أما تلوينه لروايته بأحكامة الشخصية المسبقة، فأمر سوف يجري بحثه فيما يلي، لكن لابد من الاعلان هنا أن أمبرويز ليس المصدر الذي يتوجب على المرء الالتفات إليه للحصول على المعلومات حول التاريخ الداخلي لمملكة القدس.

كما أن أمبرويز ليس الأفضل للاعتماد عليه من أجل التأريخ لرتشارد في فرنسا وانكلترا قبل الحملة الصليبية، ذلك أن مواد ديسيتو، وديفايز، وجستاـهوفدن فيها الكثير من المزيد من التفاصيل عما حدث في الغرب، وهي مصادر أفضل حول كل من الاستعدادات للحملة الصليبية ومن أجل الحوادث التي وقعت في فرنسا وانكلترا في أثناء غياب رتشارد، لكن بالنسبة لزحف الصليبيين والحرب في صقلية يحتل أمبرويز المقام الأول في الأهمية، فهو هنا قد كتب حول مارآه شخصياً، ومامن مصدر آخر روايته مثل روايته مشرقة وفيها حيوية، وراوية هوفدن مليئة أكثر وفيها دقة أعظم بالنسبة للتأريخ، لكن هذه الرواية تفتقر إلى نقاوة أمبرويز وحيوته، وكتب هوفدن اعتماداً على مصادر مكنته من نقل نصوص المعاهدات،

والأوامر، والقرارات التي اتخذت في المؤتمرات، وهذه معلومات افتقر إليها أمبرويز، وصحيح أن هوفدن أكثر دقة، لكن أمبرويز أكثر حيوية بشوط واسع، فالغابة قد لاتشاهد بوضوح تام، لكن الأشجار أعظم تميزاً، وأوراقها أعظم اخضراراً.

ويقدم لنا أمبرويز الرواية الأفضل تفصيلاً فيما يتعلق باحتلال قبرص، وهنا تحتوي الرواية المدونة على صورة أعمال يحتمل أن أمبرويز قد شارك فيها شخصياً، أو على الأقل رآها تحدث من حوله، وهو صحيح لم يعرف التنظيمات التي وضعها رتشارد من أجل ادارة الجزيرة، الأمر الذي زودنا به هوفدن، لكنه قدم لنا رواية أكثر إثارة حول القتال وحول أسر إسحق.

ومجدداً اعتمد أمبرويز فيما يتعلق بأحداث حصار عكا، على معلومات الآخرين، ولدينا هنا بوضوح حكايات حوادث تناقلها الناس من خيمة إلى خيمة، والترتيب التاريخي في هذا الجزء لدى أمبرويز مضطرب كثيراً، وهناك ترتيب ضئيل لتسلسل المعارك، لكن آفاق الأفراد، ومعاناة الحشد، وأفراحه، وترح الحجاج ويأسهم، رويت بحيوية ودرامية، وتحسن السرد التاريخي لديه بعد وصول رتشارد، وتعادل رواية أمبرويز حول نهاية الحصار الروايات الأخرى.

وصحيح أنه حذف كل المناقشات الهامة ذات التفاصيل الكثيرة، التي نتعرف إليها من المصادر الأخرى، ولعله فعل ذلك لأنه اهتم فقط بتلاوة أعمال رتشارد والأحداث غير المرتبطة بهذه الأعمال، والتي تبعده عن هذه الغاية المفردة هي حتى أقل ورود في «التاريخ» منها في «الرحلة»، أما رحلة فيليب لدى عودته إلى الوطن فقد تلقت كثيراً من العناية من قبل هوفدن في حين أنها حذفت كلياً من قبل أمبرويز، ذلك أنه اهتم برواية أخبار أفاعيل رتشارد قلب الأسد، ولم يهتم بالأفاعيل الأدنى للأناس الذين رآهم أقل مرتبة، وقدم كل من هرقل وليبللوس وهيماروس روايات أكثر صلة بالحصار بشكل عام، لكن أمبرويز تفوق عليهم بما تعلق

بالشأن الشخصي الخاص.

وأمبرويز في قصته عن حملة رتشارد في فلسطين فريد ورائع، وفقط شابهه بهاء الدين في ايقافه نفسه على أعمال بطله فقط، ولديه يمكن للمرء أن يجد روايات جيدة عن معارك الحملة الثالثة، وجرى من قبل أمبرويز تدوين تفاصيل الزحوف والمعارك، والصراعات البطولية ومتع وآلام الحجاج عندما ابتسم لهم الحظ أو قطب، بشكل متدفق وحيوي ومتعاطف، ولم تكن المباحثات من أجل الهدن معلومة لديه وبقي جلها غير مذكور عنده مالم تكن المعلومات قد أصبحت معروفة ومتداولة في أرجاء المعسكر، فلقد كان أمبرويز مجرد واحد من بين حشد الحجاج الذي سار إلى حيث قاده أميره، دون أن يعرف لماذا، وفقط كان يتوقع شيئاً ما حول الدوافع التي دفعت نحو القرار المتخذ، ولقد شرح مثل هذه القرارات ببساطة وسذاجة، وكانت الخيانة، وسوء الثقة، والأنانية تلقى لديه قبولاً أعظم من الأسباب المعطاة حول الأحوال والاستراتيجية التي حركت القادة.

ولاحظنا أن أمبرويز قد لون روايته كلها بتحاملة الشخصي القوي، فلقد كتب بمثابة واحد كرس نفسه في سبيل الولاء لرتشارد ولجميع رفاق رتشارد وحاشيته، وملاحظ هذا بشكل خاص في معالجته لما تعلق بغي لوزغنان وكونراد أوف مونتفرات، وهناك اتجاه قوي جداً للقول بأن جميع رواياته عن تاريخ القدس قبل بداية حصار عكا هي شبه مزيفة، فقد حصل أمبرويز على معلوماته كلها حول تلك الأحداث من مصادر ثانوية، وكلياً كما يبدو من الموالين لغي، وهو لم يفهم قط نفسية أو مشاكل الفرنجة السوريين، ولقد عبر أمبرويز تماماً عن ميول الصليبيين الغربيين في معاكسة وتضاد لميول الفرنجة المستعمرين في سورية، وكان المسلمون بالنسبة لهم جميعاً «قطيعاً من الكفار»، وعبر عن متعة سادية في وصف قتلهم وسوء حظهم، ومع هذا كله أتى على ذكر بعض وقائع كرم

صلاح الدين وأخلاقه الرفيعة، وكذلك سيف الدين، ولم يتحدث عنهما بانشراح وإطراء، وبعاطفة ومشاعر تقوى استنزل لعنات الرب ضد جميع المسلمين، هذا ولم يأت على ذكر حوادث إعجازية، كما أنه لم يدون حكايات تعلقت بتدخلات للقديسين لصالح جيش الفرنجة كما فعل بعض مؤرخي الحملة الصليبية الأولى، ولقد رأى في معاناة الفرنجة أدلة على غضب الرب تجاه الأعمال الفاسدة للناس، وكانت محن القدس بالنسبة له نتيجة مباشرة لعدم تقوى سكانها.

وبالمقارنة مع أمبرويز علينا أن نتفحص مواد ذيل تاريخ وليم الصوري، التي كانت تنسب من قبل لأرنول وهرقل، فقد كتب الذيل من قبل فرنجي بلدي من فرنجة سورية، وقد مثل الفرنجة «المستعمرين» في تميزهم عن «الصليبيين البحريين الوافدين»، فهؤلاء لم يوافقوا أمبرويز على وجهة نظره، وخالفوه في تفسيرهم الإجمالي للحوادث التي أدت إلى قيام الحملة الثالثة، ففي الوقت الذي كان المسلمون فيه الأعداء بالنسبة لهم، لم يوجد بينهم مطلقاً نوع الكراهية العنصرية التي توفرت في مشاعر الكتاب الغربيين وظهرت في كتاباتهم، فقد كتبوا عن المسلمين مثل انكليزي كتب في تلك الأثناء عن الفرنسيين، أو مثل كاتب انكليزي كتب في العصر الحديث عن الايطاليين في بداية الحرب الكونية الثانية، وقال عنهم: «جيران معادون فيهم مافيه الكفاية من الشرور، لكن لديهم بعض الفضائل»، ولم يراقب الفرنجة الشرقيون تقلبات حظوظ الحرب بالحرارة نفسها التي شعر بها الفرنجة الوافدون، ولم يشمتوا تجاه محن المسلمين الذين قتلوا في المعارك مثلما فعل أمبرويز.

وعرف هؤلاء الفرنجة البلديون شخصياً الوضع في الشرق، وحكموا على الأحداث من وجهة النظر السياسية، وآثروا في قراراتهم مصالح مملكتهم وفضلوها على التعصب للصليب، فهؤلاء الرجال كانوا يدركون نتائج الأحداث والتوريطات، ولذلك كان كل من ريموند صاحب

طرابلس وكونراد دي مونتفرات بطليها في رواية الأحداث، وليسا نذلين، لكنهما ظهرا لدى أمبرويز خائنين منحطين ومتآمرين شريرين بسبب أحكامه المسبقة ومعلوماته السقيمة، وعندما يدرس المرء الاجماع الذي أبداه بارونات الفرنجة البلديين —الذين امتلكوا الجزء الأعظم من الأرض— في تأييدهم لريموند وكونراد، ثم عندما يتفحص بدقة أخبار حزب البلاط في ظل غي وأرناط، وينسى الأحكام الدينية والمواقف المسبقة، ويقدر المتطلبات السياسية فقط، لايمكنه إلا وأن يدرك أن ريموند وكونراد قد مثلا الحزب الذي ضم أفضل العناصر التي وجدت في مملكة القدس وقاداه، في القدرة وصواب الرأي والبصيرة، ولعن أمبرويز كونراد لتحويله المؤن من المعسكر أمام عكا إلى مدينة صور التي كانت تحت حكمه، وهنا هو لم يقدر مطلقاً حقيقة أن الدفاع عن صور كان ينبغي أن يحتل المقام الأول في اهتمامات الفرنجة البلديين، الذين كان برأيهم حصار عكا مغامرة لديهم أمل قليل بنجاحها، في حين كان الحفاظ على صور يشكل الركن الأساسي في الدفاع عن المملكة، ونسي أمبرويز، أو أنه لم يعرف أن اللاجئين من جميع المدن التي استولى عليها صلاح الدين كانوا في صور، ولقد تجاهل حقيقة أنه على صخرة مقاومة كونراد في صور تحطمت موجة الفتح الاسلامي، وقد أدان بمثابة خيانة المباحثات مع صلاح الدين من أجل الحفاظ على جزء من المملكة بمثابة دولة تابعة، لكن ليس لديه أي نقد لرتشارد عندما عرض هذا الملك فيما بعد الشروط نفسها تقريباً على السلطان، عندما أدرك استحالة اعادة الاستيلاء بشكل كامل، وكثيراً ماعبر غي دي لوزغنان عن عدم كفاءة سياسة وعجز عسكري، ولم يثق به لوردات سورية ورفضوا القبول بقيادته، وهم بالحري وثقوا بكونراد الذي برهن على بسالته في صور، لكن لم يخطر ببال أمبرويز قط أن لوردات الفرنجة السوريين كانوا سوى خونة وزائفين عندما أيدوا الحزب المعادي لرتشارد، كما أنه لم يدرك أن فيليب اغسطس قد أظهر فطنة سياسية كبيرة عندما أيد المركيز أكثر من رتشارد

عندما ساعد غي، وإذا ماأتخذنا بينات معاملة رتشارد لأخيه جون ولبعض الذين أنابهم عنه، في سبيل الحكم على تاريخ حكمه، نجد عجز الملك في الحكم على السمات أو على الكفاءة، ولم يمتلك أمبرويز شكوكاً من هذا النوع، أو أنه كما يبدو لم يشعر بأي تناقض لافي أرائه ولافي سياسة بطله عندما قبل مؤخراً بكونراد ملكاً على القدس، فقد تحول الشرير فجأة إلى حليف البطل وتم الاعتراف به من قبل الجميع على أنه أحسن رجل للمنصب الذي رشح إليه، وبين ليلة وضحاها غدا المركيز الزائف المرشح المفضل للعرش، ودوّن أمبرويز هذا التبديل بالمواقف الذي قبله رتشارد بعدما تطورليعرف حاجات البلاد،واستحالة الاستمرار في تقديم التأييد للوزغنان المنعدم الكفاءة والذي كان بلا شعبية، دوّن ذلك كله دون تقديم كلمة واحدة للشرح والتفسير.

وينبغي أن نتذكر أنه خلال تاريخ الدول الصليبية،كانت هنالك حوادث كثيرة كان فيها الفرنجة البلديين أفضل قدرة في معالجتها مع جيرانهم المسلمين،أكثر مماكانوا مع حلفائهم المسيحيين من الغرب،فعندما عرض كونراد التبعية على صلاح الدين،كان يفكر في انهاء الحرب التي كانت مستعرة في البلاد من دون أدنى فرصة بالنجاح،ولقد أدرك أن تبعية مشرفة مفضلة على مملكة مدمرة شعثتها سنوات من الحرب المحلة،وفي النهاية تقبل رتشارد هذا الرأي،ومن المؤكد أن عروض كونراد لم تكن خيانية أكثر من اقتراحات رتشارد في أن يعاد بناء مملكة القدس بمثابة مملكة تابعة،يقدم ملوكها الولاء لصلاح الدين،ويزودوا جيشه بالعساكر وقت الحاجة وحسب الطلب،ولاسيما عندما نتذكر أن اقتراحات رتشارد قد تضمنت أن تتزوج أخته من سيف الدين،وأن تمنح المملكة لهماشراكة معاً.ولم يكن رتشارد أحمقاً،ولقدتعلم أثناء الحملة في فلسطين الكثير،فلقد اكتشف استحالة اعادة استيلاء كاملة للمملكة،وتوصل الى ان يدرك ان حزب البارونات كان يعرف ماذا

يجري وماذا يريد عندما فضل كونراد،وتطور ليقدم إمكانية الوصول الى اتفاقات مشرفة بين رجال انتموا الى عقائد مختلفة،وطور رتشارد الميول الاستعمارية،فقد كان هو نفسه فارساً،ومعلماً في فن الحرب،كما أنه كان قادراً على إدراك هذه السمات لدى خصمه العظيم،ولم يكن أمبرويز قادراً قط على تعلم هذه الأشياء فهو قد تقبل قرارات ملكه بالتسليم الأعمى وبدون سؤال.

وعلى الرغم من أحكام أمبرويز المسبقة،وانحيازه الكامل،وكل تقواه وتعطشه للدماء،وكذلك على الرغم من التكرار الملحمي في رواياته والمبالغات،سيبقى مع هذا كتاب أمبرويز الحاوي للرواية الأفضل من سواها حول صليبية رتشارد،وأهم وثيقة موجودة تكشف عقلية الصليبين وتعبر عن نفوس هؤلاء الرجال الذين رموا بأنفسهم قلباً وروحاً في حرب مأساوية مخفقة،وتحملوا المشاق والاحباطات من أجل هدف ديني ومعنوي،و«التاريخ»أكثر من هذا كله،إنه الملحمة والنشيد،وكتاب أعمال واحد من أعظم الشخصيات المسيحية رومانسية وتدفقاً بالحياة.